القيم الأخلاقية للعربي من خلال الشعر الجاهلي

الدكتور صالح مفقودة

جامعة بسكرة

العربي والبيئة:

من المسلم أن لكل بيئة أثرا في سكان أهلها وأخلاقهم، غير أننا نريد أن نتجنب في هذا الصدد، تلك الأحكام التي تنطلق مباشرة، إلى الحكم على الإنسان العربي من خلال البيئة الجاهلية، فقد بدت حسبما لاحظنا هذه البيئة لا ككل البيئات إذ صورت على أنها جحيم لا يطاق، ورغم أنها أرض طبيعية لينة واسعة ناعمة يحلو العيش فيها في بعض الأحيان، ويصعب في بعض الأحيان، إلا أن الدارسين نظروا إلى هذه المنطقة بمنظار غريب، وحكموا على العربي من خلال ذلك.

ويبدو في مثل تلك الاحكام إجحاف، ومغالطة بسبب النظرة الجغرافية للبيئة، فبعضهم يرى أن لفظة الجاهلية في حد ذاتها دليل كاف على الحكم على إنسان هذه الحقبة بصفات لعله كان بريئا منها، يقول الأستاذ خليل هنداوي: «على أن الأقدمين قد أسرفوا كثيرا في وسم الأخلاق الجاهلية بالأخلاق الفظة القاسية وهم ما فعلوا ذلك إلا ليعيدوا نتيجة المقارنة بين المثل الجاهلية، والمثل الإسلامية ....و ليس عندي ما يمنع أبدا أن نصحح أحكامنا على أخلاق العرب من خلال نصوصهم وتراثهم الفكري[1]»

فلنتجنب الأحكام الجاهزة -إذن- ولنعمد مباشرة إلى استقراء شعرناالقديم لنكشف عن القيم الأخلاقية حسبما تنطق بها هذه القصائد، ومن خلال ذلك نتعرف على جوانب

---

1 - خليل الهنداوي (خلق العربي من خلال ديوان الحماسة) محاضرات الموسم الثقافي. ص97

عديدة من الشخصية العربية قبل الإسلام، فكما يقول الدكتور جبرائيل جبور: «....الشعر القديم هو الذي يمثل الخلق العربي الصميم.[1]»

وضروري أن نعرف طبيعة الخلق العربي لأن نفسية العربي القديم ما تزال تظهر في سلوكنا، وكما يقول الدكتور يوسف العش في معرض حديثه عن نفسية العربي: «قلت في نفسي: أليس مخجلا ألا نعرف طبيعة العربي وطبيعته هي التي توجه مستقبل بلادنا، وهي التي رسمت ماضينا، وترسم حاضرنا[2]».

ولنكشف عن بعض الجوانب الأخلاقية من الشخصية للعربي كما صورها الشعر الجاهلي، دون أن نهمل بطبيعة الحال البيئة التي ظهر فيها هذاالشعر، غير أننا نطالب بنظرة كلية لهذه البيئة التي تحتوي على جوانب الحياة المختلفة، كما تحتوي على أسباب الموت، وليست هذه الصحراء شرا كله كما أنها جنة فيحاء، ففي ما يتعلق بالجانب السهل، فإننا نجد بساطة العيش وطبيعته، وانعدام التكلف كما نجد سيطرة العواطف الإنسانية. أما فيما يتعلق بالجانب الآخر، فقد صور لنا الشعراء بيئة قاحلة، يندر فيها الماء، ويقل العشب. ولقد كان لصعوبة هذه البيئة وقسوتها أثر على جسم الإنسان العربي وأخلاقه إذ عرف بالصبر هو وحيواناته التي يستخدمها، ولم يكن تأثير هذه البيئة على جسم الإنسان فقط بل أثر على الناحية الأخلاقية، فكان لهذه الطبيعة أثر كبير على القيم التي سادت في هذا العصر والتي نجدها في قصائد الجاهلية.

والحقيقة أن قسوة بيئة الصحراء، وصعوبة المسالك فيها لم يكن ليخلق إنسانا قاسيا مقيدا عن الانتقال، بل أننا نجد أن هذا الإنسان لا يماثل هذه البيئة فقط بل يسود عليها، إنه

---

1 - جبرائيل جبور (الناحية الإنسانية في الشعر القديم) محاضرات الموسم الثقافي. ص 93

2 - يوسف العش (نفسية العربي) مجلة المعرفة السورية. ص 15

يخضع لها أحيانا ولكن من أجل السيطرة عليها، فلم يكن العربي يعيش في عزلة وسط هذه الصحراء على نحو ما يذهب إليه عبده الشمالي في قوله: «و البيئة الجاهلية عبقة برائحة الإبل والصحراء، ومترامية الأطراف، صعبة المواصلات، نادرة الطرق، وفرة المسالك شمسها محرقة ورمالها كاوية، تهب فيها الزوابع، فتنقل الرمال من مكان إلى آخر وترفع منها جبالا لا تلبث أن تزول، أو تنصب تلالا في مواضع جديدة نائية .... وهذه الصعوبات الطبيعية جعلت الاتصال بالخارج عسرا شبه مستحيل، وصدت الجاهلي عن الاكتراث لما هو خارج جزيرته، ومحاولة الإطلاع على حالة الأجانب والاهتمام بعلومهم وفلسفتهم، ولذلك سميت شبه الجزيرة العربية "جزيرة"[1]».

حقا إن شبه الجزيرة العربية هي كما وفها عبده الشمالي بيئة صحراوية صعبة ولكن هل جعلت هذه الطبيعة الإنسان العربي يعيش في عزلة؟

إننا لا نذهب إلى ما يذهب إليه عبده الشمالي فهناك عدة أدلة تثبت اتصال العرب بغيرهم، وبجيرانهم بصورة خاصة، عن طريق التجارة خاصة، وإذا كانت الطبيعة قاسية فإن العربي كان مؤهلا لهذه الطبيعة عارفا بأسرارها وخباياها. ولم تكن حياة العرب مستقرة معزولة، بل كانت قائمة على التنقل والحركة بصفة عامة. ومن هذا فإن تأثير البيئة على العربي وأخلاقه أمر نقر به، ويؤكد عليه كثير من الباحثين.هذا الدكتور محمد زكي العشماوي يرد أخلاق العربي إلى طبيعة البيئة التي عاش فيها، يقول: «...إن الجفاف والجدب ووعورة الحياة هي التي حددت القيم الأخلاقية عند العرب، فشعور العرب بالضعف أمام قوة الطبيعة

---

1 - عبده الشمالي (دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية. ص 92

وقسوتها هو الذي فرض عليهم تقديس القوة والبسالة، وهو الذي جعلها مبدأ من مبادئ السيادة عند العربي، وهو كذلك الذي ولد لشعور بالحاجة إلى واجب مقدس وهو واجب الضيافة والنجدة والمروءة[1]».

فالدكتور محمد الدويهي يربط بين طبيعة الجزيرة العربية، وخلق الإنسان العربي، فالصفات التي امتاز بها العربي، والقيم التي كان يتمسك بها هي وليدة الظروف الطبيعية والاجتماعية التي ينشأ فيها الإنسان حسب طبيعتها.

إن لقسوة الطبيعة، وقوة الأشياء ترجيع في نفس الشاعر يبدو من خلال القصائد، ويظهر في إقدام العربي وشجاعته.و معلوم أن الطبيعة العربية مع قسوتها كانت تحتوي على وسائل الحياة، وأسباب الخصب والنماء، وكذلك الشخصية العربية كانت مع قوتها وصعوبتها شخصية حساسة عاطفية شفوقة، فالعربي يحرص كثيرا على إغاثة الملهوف المستغيث، ومساعدة الضعيف، وإكرام الضيف. ويربط الدكتور ريجس بلاشير أيضا بين قوة العربي ومزاجه الثائر والبيئة التي كان يعيش فيها فيقول: «ففي هذا العالم حيث فقدان الأمن حالة طبيعية، والغزو وسيلة للعيش، والثأر واجب مقدس فرض على البدوي أن يكون محاربا، ولم يكن إلا هذا حتى ولو لم يرتفع فوق مستوى الراعي البسيط، فمن واجبه حماية أمواله وعيون الماء ومواشيه، كما يجب عليه حماية الحضريين وإجبارهم على الإخلاص له[2]».

ويرى أيضا أن هذه الطبيعة بهذه الصفات مضافة إلى رواسب عديدة من فقر وحرمان كل ذلك يجعل من العربي «سفاكا متكبرا حتى في حالات البؤس، سريع الانفعال والغضب ميالا إلى ازدراء حياته وحياة الآخرين معجبا بالقوة مهما كانت نتائجها[3]».

---

1 – محمد زكي العشماوي: النابغة الذبياني. ص 220

2 – ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي. ص 37

3 – ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي. ص 37

والحقيقة أن الإنسان العربي لم يكن هذا الإنسان الفظ الخشن، بل كانت فيه جوانب للين والمرونة، وهي الجوانب الإنسانية العاطفية مثل حبه للإغاثة إكرامه للضيوف، ورفقه للضعيف، ويمكننا التطرق إلى بعض هذه القيم الخلقية من خلال الشعر الجاهي، والمعلقات خاصة. يقول الدكتور جبرائيل جبور: «فإن الخلق العربي في أساسه لم يكن بهذه الفظاظة، والخشونة كما يتوهم البعض، ولم تكن استجابة البدوي للعواطف الإنسانية استجابة سلبية ضعيفة بحيث لم تؤثر عليه كما أثرت حياة الغلظة والقساوة التي فرضتها عليه باديته، بل كانت استجابة إيجابية قوية تتفق حتى مع ما يظهر أنه مناقض لها في بيئته الخشنة القاسية[1]».

أولا: الكرم

لا يعني الكرم العطاء المادي فقط، بل يعني الكرم الداخلي النابع من النفس المتعاطفة مع الآخرين، ولذلك نجد ابن سيدة يعرف الكرم في كتابه المخصص بقوله: «الكرم: ضد اللؤم الذي هو شح النفس، والكريم الصفوح الواسع الخلق[2]».

ولا يكاد الناس قديما وحديثا يختلفون حول الكرم ووجوده عند العرب منذ الجاهلية بل في هذه الفترة خاصة، ومن ثم فقد امتدح بها الشعراء ممدوحيهم، وافتخر بها الأبطال، ويورد ابن سيدة مجموعة من الألفاظ الدالة على الكرم والعطاء نورد منها ما يلي:

السخاء – السماحة – الغيدان – الغمر – النوال – المنحة والمنيحة (و هي الناقة التي يعطيها رجل لرجل آخر ليشرب لبنها ثم يردها)، والرفد

(وهو الصلة والعطية، وهو عطية بلا ثمن – التبرع – العارية (وهي التي لا تعاد إلى صاحبها) – الجود – البذل[3]...

---

1 – جبرائيل جبور: المرجع السابق ص 46

2 – ابن سيدة: المخصص، ص 134

3 – ابن سيدة: المصدر السابق، ص 137

وهذه الألفاظ الكثيرة وغيرها تدل على وجود هذه الصفة الأخلاقية المميزة للإنسان العربي، والتي تدل على مساعدة الفرد لأخيه دون محاسبة فيما بعد، فالكرم يشمل القضايا التي ترد والتي لا ترد، غير أن الكرم العربي من خلال هذه الألفاظ نجد أن صاحبه لا ينتظر المرد بل هو عطاء من أجل العطاء.

وقد ظهر الكرم في أسمى صوره متمثلا في الإيثار، الذي هو تفضيل الآخرين على النفس، فقد يكون المرء بحاجة إلى الشيء ومع ذلك يقتسمه مع مستحقه.

وإذا نحن بحثنا عن أسباب هذا الكرم العربي، فإننا نجد الباحثين يقدمون آراء مختلفة، فمصطفى ناصف يرى أن هذه الصفة مقرونة دوما مع غيرها من الفضائل بالتحدي، تحدي بواعث الموت والهلاك، وتحدي غرائز الحياة بشكل واضح[1].

ويذهب الدكتور محمد النويهي إلى أن الكرم العربي لقديم كان كرما ماديا هدفه تأمين المستقبل والادخار، إذ علم الناس أن المال غاد ورائح، ومن هنا فإن الكرم في نظر محمد النويهي لم يكن نابعا من القلب، بل كان كرما ماديا[2].

وقبل أن أقدم وجهة نظري حول أسباب ودواعي الكرم، يجدر بنا استعراض بعض صور الكرم الواردة في الشعر الجاهلي، ليكون حكمنا مسانداً إلى دليل.

مظاهر الكرم العربي:

من مظاهر الكرم العربي نحر الناقة، وأكل لحمها، نجد الشاعر امرؤ القيس[3]:

ويوم عقرت للعذارى مطيتي ** فيا عجبا لرحلها المتحمل

فظل العذارى يرتمين بلحمها ** وشحم كهداب الدمقس المفتل[4]

---

1 - مصطفى ناصف: دراسة الأدب العربي. ص 292

2 - محمد النويهي: الشعر الجاهلي. ص 236

3 - امرؤ القيس: الديوان. ص 32

4 - الدمقس: كل ثوب أبيض والدمقس الحرير

فهو يذكر هذا اليوم، ويعتبره من الأيام الخالدة في ذاكرة الزمن، وكأن نحر ناقته أحسن ما يخلد هذا اليوم الممتع، إن الشاعر امرؤ القيس لا يبخل بأمواله، ولهذا نجده يقول مرة أخرى، مخاطبا الذئب1:

كلانا إذا ما نال شيئا أفاته ** ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل

ونجد صورة أخرى لنحر النوق في شعر طرفة ابن العبد، إذ يقول2:

وبرك هجود قد أثارت مخافتي** نوادية تمشي بعضب مجرد3

فمرت كهاة ذات خيف جلالة ** عقيلة شيخ كالوبيل يلندد4

تقول وقد تر الوظيف وساقها ** ألست ترى أن قد أتيت بمؤيد5

وقال: ألا ماذا ترون بشارب ** شديد عليكم بغيه مستعمل6

وقال ذروه إنما نفعه له *** وألا تفكو اقاصي البرك يردد7

فضل الإماء يمتللن حوارها ** ويسعى علينا بالسديف المسرهد8

فطرفة ابن العبد يثير مخافة النوق لأنه إذا قام بالغ في الذبح كرما وسخاء.

---

1 – حسن السندوبي: ديوان امرئ القيس. ص 153

2 – طرفة ابن العبد: الديوان. ص 39

3 – برك: جماعة من الإبل – هجود: نيام – نواديه: أوائله

4 – كهاة: ناقة ضخمة مسنة – خيف: ضرع أو جلد الضرع – جلالة: جليلة – الوبيل: العصا الطويلة – يلندد: شديدة الخصومة.

5 – تر: ندر – الوضين: العظم الذي بين الرسغ والساق – مؤيد: داهية

6 – بغيه: ظلمه

7 – يقصد أن تركه أحسن لأنه عنيد

8 – يمتللن: يشتوين في المللة وهي الرماد الحار والجمر – السديف: قطع السنام – المسرهد: السمين.

وهذا لكرم يبدو في الإقبال على الشرب، وفي الضيافة ولن تجدي مقاومة الضيوف للكف من نحر الإبل، بل إن ذلك يزيده إسرارا على الذبح، وهكذا تظل الإماء تسعى بالسيف المسرهد فيكون يوما من أيام الحياة يستحق التسجيل والخلود، يقول جبرائيل جبور: «و لعل أبلغ صورة في الشعر العربي للكرم هي ما ذكره طرفة ابن العبد في كيف (هكذا) ينهض بسيفه إلى ناقته الباركة، فتفر منه لأنها تعلم أنه لا يفاجئها إلا لينحر منها لأضيافه، فيأخذ يعقر ما نار وهرب منها، ويحاول أضيافه إيقافه عند حد فيرد عليهم أحد أصحابه: «دعوه وشأنه، وإلا فإنكم إذا عارضتموه ازداد عقرا ونحرا لها[1]».

وفي قصيدة لبيد المعلقة نجد الأبيات الآتية تصور نحر النوق وتوزيع لحومها على المستحقين من الجائعين والأرامل يقول[2]:

وجزور أيسار دعوت لحتفها ** بمغالق متشابه أعلامها[3]

أدعو بهن لعاقر أو مطفل ** بذلت لجيران الجميع لحامها[4]

فالضيف والجار الجنيب كأنما ** هبطا تبالة مخصبا أهضامها[5]

تأوي إلى الأطناب كل رذية ** مثل البلية قالص أهدامها[6]

ويكللون إذ الرياح تناوحت ** خلجا تمد شوارعا أيتامها[7]

إنا إذا التقت المجامع لم يزل ** منا لزاز عظيمة جشامها[1]

---

1 - جبرائيل جبور: المرجع السابق. ص 50

2 - لبيد: الديوان ص. 320

3 - جزور: التي جررت أي نحرت - أيسار: الذين يضربون على الجزرو بالقداح - مغالق: القداح التي تغلق الرهن وأحدها مغلق - الأعلام: العلامات.

4 - عاقر أو مطفل: الناقة وربما العجوز - لحامها: لحمها

5 - هناك مثل من أمثال العرب (ما نزلت بتالة لتحرم الأضياف)

6 - رذية: المرأة التي أرذلها ضعفها

7 - التكليل: تضد اللحم فوق الجفان - تناوحت: تقابلت رياح الصبا والدبور، والجنوب والشمال

ومقسم يعطي العشيرة حقها ** ومغذمر لحقوقهم هضامها[2]

فضلا وذو كرم يعين على الندى ** سمح كسوب وغائب غنامها[3]

من معشر سنت لهم آباؤهم ** ولكل قوم سنة وإمامها[4]

لا يطبعون ولا يبور فعالهم ** إذ لا يميل مع الهوى أحلامها[5]

دواعي الكرم العربي: كل الباحثين والدارسين متفقون على كرم الإنسان العربي، ولكنهم يختلفون في الأسباب المؤدية إلى هذا الكرم، ففي حين يرى بعضهم أن السبب يرجع إلى حب المساعدة، والشفقة على الآخرين، يرى البعض الآخر أن السبب يعود إلى الرغبة في تأمين المستقبل، وسنتعرض لهذه الأسباب الداعية للكرم مناقشين إياها ومدللين على ذلك بالشعر نفسه.

التوازن الاجتماعي: من بين الأسباب الداعية إلى الكرم العربي في العصر الجاهلي تحقيق التوازن الاجتماعي بين الموهوبين والمحرومين، وهذا ما جعل بعض الناس يقتسم أمواله مع الآخرين، ولنا في ظاهرة الصعلكة خير مثال على نشأة هذه الأفكار الداعية إلى فك البعد بين الطبقات الاجتماعية، ومن هنا نجد الداعي أو الآداب في العصر الجاهلي يدعو الجميع، ولم يكن الكرم خاصا بجماعة دون أخرى، وفي هذا دليل على النزعة الإنسانية التي يتصف بها العربي، ونجد في ظاهرة الأخذ بالثأر والأحلاف جانبا يدل على النزعة الجماعية.

---

1 -لزاز عظيمة: قطاعها - جشامها: يركب معظمها

2 -مغذمر من الغذامير وهو أن يرمي الكلام بعضه على بعض والمغذمر يعطي ولا يلتفت - هضامها: كسارها.

3 - سمح: سهل - الرغائب: الكثير من المال - غنامها: يغنمها ويصيبها.

4 - سنة: طبيعة

5 - لا يطبعون: أي لا تدنس أعراضهم

إثبات النفس وتحقيق الوجود: يقال أحيانا إنه لولا زهير لما ذكر هرم بن سنان، ولولا المتنبي لما اشتهر سيف الدولة، فالشعراء هم الذين يخلدون الأشخاص، ونحن على علم بأن سبب تخليد الشعر لهؤلاء هو كرمهم، فقد كان هرم بن سنان كريما حين دفع الديات، كما كان سيف الدولة كريما مع المتنبي، فالكرم إذن وسيلة للذكر، هذا ما آمن به الناس منذ القدم، حيث كانوا يشترون أحاديث المجد والبقاء، والذكر الحسن بالكرم والسخاء والبذل، فحين يتوفى الشخص الكريم يبقى ذكره بعد وفاته، هذا ما يمكن فهمه من خلال الشعر، بالإضافة إلى السبب السابق، يقول الدكتور مصطفى ناصف عن الكرم الجاهلي: «لقد امتدح الشاعر العربي منذ القدم الكرم وصور الرجل الفاضل، ولكن صورة الرجل الفاضل أو المثل الأعلى كانت تصدر عن بواعث ...فصورة الكرم والنجدة في الشعر مقرونة - دائما- بتحدي بواعث الموت والهلاك، هذا واضح في الكرم وضوحه في النجدة والشجاعة ولذلك فالوصف الدقيق للبذل ليس هو الكرم والشجاعة، وإنما هو موقف خاص إزاء بواعث حفظ الذات وتحدي غرائز الحياة بشكل واضح[1]».

إن الكرم كان وسيلة من وسائل البقاء في نظر الدكتور، ولم يكن كرما هكذا بدون هدف، فالعربي ينتظر من هذا الكرم أن يبقيه، ويخلده، ونعتقد أن هذا الرأي سليم لوجود ما يدعمه في الشعر فهذا طرفة يقول بعد تصويره لنحر الناقة[2]:

فإن مت فانعيني بما أنا أهله ** وشقي علي الجيب يا ابنة معبد

تأمين المستقبل: ذكرنا أن الإنسان الجاهلي كان يتمسك بصفة الكرم، من أجل أن يذكر في المستقبل حتى بعد وفاته، ولم كن يهدف إلى تأمين المستقبل فحسب، بل كان هدفه أبعد من ذلك خلافا لما يراه الدكتور «النويهي» الذي يقول: «اهتدى الجاهليون إلى الكرم كوسيلة للاختيار من هذا التقلب، وتخفيف أسوأ عواقبه، فهو نوع من ضمان

---

1 - مصطفى ناصف: المرجع السابق ص 292.

2 - طرفة بن العبد: الديوان ص 39

المستقبل، أو صفة (للتأمين الاجتماعي) إن شئت. فالمال كما يقول شاعرهم غاد ورائح، ولا يبقى منه إلا الأحاديث والذكر، إن اشتهر عنك أنك كنت كريما في زمن غناك، فهذا أجدر أن يحمل الآخرين على معونتك إذا افتقرت واحتجت لذلك[1]».

إن الكرم هو وسيلة لتأمين المستقبل، فالعربي يكرم الآخرين من أجل أن يتلقى منه العطاء، وهذا الرأي صحيح إلى حد ما، نجد الشاعر زهير يقول:

لحي حلال يعصم الناس أمرهم ** إذا طلعت إحدى الليالي بمعظم[2]

كرام فلا ذو الوتر يدرك تبله** لديهم ولا الجانـــي عليهم بمسلم

ولكن هل ما يقدمه العربي ينتظر منه الرد؟ إننا حين نتتبع الأشعار نجد الإنسان العربي يميل إلى الكرم المتواصل والمتزايد، حقيقة هو ينتظر الجزاء ولكن كدليل ورمز على الاعتراف به، وليس حبا في هذا الرد، إنه يكتفي بأن يرد على كرمه بالقول الحسن وكفى، وعلى ذلك فإن الكرم العربي، كان من أجل مقاومة الموت والهلاك سواء بالنسبة للشخص الذي يقدم المكارم أو الشخص الذي يتلقى العطاء. ففي اعتقادي أنه ينبغي أن نحسن النية بهذه الصفة العربية الأصيلة التي اتصف بها العربي، من تقديم المساعدة للضعفاء ونحر الناقة للضيوف، إن ذلك يفوق أن يكون ادخارا للمستقبل، خاصة أنه موجه للضعفاء والمساكين، يقول فيليب حتي: «و يظهر الكرم في البدوي حين يبدي استعداده لنحر ناقته، وتقديمها طعاما للضيف أو لإطعام الفقراء والمساكين[3]».

إن العربي كان يهدف من كرمه إلى تقديم مساعدة للآخرين، والانتصار على الموت والاعتداد للمستقبل، وقد كانت هذه هي عينها أسباب الكرم إضافة إلى متطلبات البيئة الجاهلية التي تفرض التعاون والمساعدة.

---

1 – محمد التوهامي: المرجع السابق ص 1 :235

2 – الأعلم الشنتمري. شعر زهير ص 24

3 – فيليب حتي تاريخ العرب. ص I :131

ثانيا: الشجاعة والإقدام

طبيعة الشجاعة العربية:

عرف الإنسان العربي بالشجاعة والإقدام وقد سجل ذلك في شعره، والشجاعة عند الجاهلي تعني الإقدام على الحياة والإقبال على كل ما فيها من ملذات وآلام دون خوف أو خجل فقد كانت طبيعة العربي مجبولة على الصراع مع الطبيعة دون خضوع.

ومن ضمن الأمور التي تلفعهم إلى الشجاعة، إيمانهم بأنه لا مفر من الموت، وأن الجبن لا يقي من الموت، بل أنهم أخذوا قاعدة من الحياة مفادها أن من يقتل مدبرا أكثر ممن قتل مقبلا، يقول صاحب العقد الفريد: «و تقول العرب (أن) الشجاعة وقاية والجبن مقتلة، واعتبر (من) ذلك، (أن من) يقتل مدبرا أكثر ممن يقتل مقبلا[1]».

ومن ثم فقد تعود العربي على الإقدام، وحرص على تعليمه لأبنائه وتعلم التحدي، تحدي كل شيء مهما عظم، ولكن الشيء الذي ينبغي التنبيه إليه هو أن العربي لم يكن يقدم على الموت بجهل وقهور، بل أن الشجاعة في مفهومه تقتضي المحافظة على النفس ومجانبة الأخطار حتى إذا ما تأكد من أنه لا سبيل سوى خوض المعركة خاضها بكل قوة، يقول عمرو بن كلثوم[2]:

ألا يجهلن أحد علينا** فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ولقد بلغ من شدة حبهم للإقدام أنهم كانوا يمتدحون الظلم أحيانا والتعجيل بالحرب، والذي لا تكون لديه القدرة على هذه الأعمال يمكن أن كون عرضة لظلم الآخرين. يقول عمر الدسوقي عن الشجاعة العربية للتصفة بعض الفضائل والصفات الإنسانية الأخرى ما يلي: «و كان من أبرز صفاتهم شجاعة فيها قوة، وتحد للمنية وفيها

---

1 – ابن عبد ربه: العقد الفريد. ص 116

2 – ابن الأنباري: شرح لقصائد السبع الطوال. ص 426

دربة وتفوق في استعمال الأسلحة المختلفة، وفيها إنسانية وكرم، وإنصاف للأعداء، ووفاء للوعد[1]». كان من أبرز خصائص الشجاعة عندهم نبل الوسيلة، فلم يكن يهمهم النصر النهائي بقدر ما كانت تهمهم طريقة النصر نفسها على اعتبار أن الوسيلة في نظرهؤلاء جزء لا يتجزأ من الهدف.

إن العربي حين يتحتم عليه خوض معركة فإنه لا يتقاعس، ولا يتردد، وإنما يمضي إلى هدفه مباشرة فيما عرف بالحزم والعزم، يقول الدسوقي: «و الشجاعة تقتضي أن يكون الفتى ذا عزيمة وحزم، ولا يتردد ولا يتلوم، وإلا قضى عليه تردده وتقاعسه، فهو يناجز فرسانا شجعانا، فلا بد أن يكون قوي الجنان نافذ الرأي ذا بصيرة[2]».

مظاهر الشجاعة: من مظاهر الشجاعة تلبية النداء وقت الخطر، والنهوض للدفاع عن القبيلة وقت الحرب، وقد تغنى الشعراء بذلك كثيرا، وخير مثال على ذلك ما نجده في قصائد الحارث بن حلزة اليشكري، عنترة بن شداد وعمرو بن كلثوم.

وهناك مظهرا آخر من مظاهر الشجاعة والإقدام، والنهوض بعبء الأخذ بالثأر، والأخذ بالثأر عادة استحكمت في نفوس الجاهليين إلى حد بعيد إلى درجة أن أصبحت عقيدة ينبغي على الشخص القيام بها، وإلا لحقت به اللعنة ونال شتيمة الدهر وسبة الأبد، يقول الدكتور شوقي ضيف: «كان أكبر قانون عندهم يخضع له كبيرهم وصغيرهم هو قانون الأخذ بالثأر فهو شريعتهم المقدسة، وهي شريعة تصطبغ عندهم بما يشبه الصبغة الدينية، إذ كانوا يحرمون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب حتى يثأروا من غرمائهم[3]».

والسبب في اهتمام الجاهليين بعادة الأخذ بالثأر هو الحرص الكبير على كرامة العشيرة أو القبيلة حتى لا يستهان بها فتستذل، وتستأصل[4].

---

1 – عمر الدسوقي: الفتوة عند العرب. ص 29

2 – عمر الدسوقي: الفتوة عند العرب. ص29

3 – شوقي ضيف: العصر الجاهلي. ص 62

4 – عمر الدسوقي: المرجع السابق. ص 35

وكان في اعتقادهم أن الميت حين يموت مقتولا يظل طائرا على رأسه يقول اسقوني إلى أن يسقى الدم، وقد شرح «نكلسن» عادة الأخذ بالثأر شرحا جيدا، فقال: «..فإن الدم يستدعي الدم، وكان هذا الالتزام ثقيلا على ضمير الوثنيين فالأخذ بالثأر كاد أن يكون بالنسبة لهم (ضرورة طبيعية فإذا لم يستجب لها حرمت صاحبها النوم والطعام والصحة)...فهو مرض في الشرف قد يوصف بالجنون....و كان المعتقد أن روح القتيل تظهر فوق قبره بصورة (هامة أوصدى) يصرخ (إسقوني) إلى أن يؤخذ بثأره[1]».

لقد كان إذن لعادة الأخذ بالثأر نصيب كبير في قيام الحروب، تلك الحروب التي كانت تستدعي الأخذ بالثأر، وكذلك فقد كان العربي يعيش حلقة دائرية بين الثأر والحرب ومن مظاهر الشجاعة والكرم إغاثة الملهوف، ومساعدة المحتاج وتلبية النداء، وقد كان بعضهم يوقد النيران ليلا ليهتدي إليه المسافرون والفارون والضالون، وهذا المظهر من مظاهر الشجاعة والكرم قد يؤدي بالإنسان إلى التضحية بالنفس، حماية الآخرين، وإسعادا لهم فهو يقوم بخدمة إنسانية.

ومن أبرز خصائصهم أنهم لا يسألون المستغيث عن سبب طلب الغوث، بل يسارعون إلى إغاثته قبل كل شيء. إن العربي يحمي المستغيث مهما كان الجرم الذي ارتكبه وفي مجال الإغاثة يساعد حتى عدوه. ويدخل ضمن الإغاثة الأسير في الحرب، كما أن العربي يتصف بعدم إذاية النساء والعجزة من شيوخ وأطفال فقد كان الفارس العربي الشهم، يبحث عن الفارس الشجاع الذي يستطيع مبارزته، ومن هنا لا نجد الشعراء يصفون أعداء هم بالضعف بل يصفونهم بالقوة، هذا عنترة بن شداد يصور شجاعة وبسالة خصمه في ميدان القتال[2]:

---

1 - رينولد نكلسن: تاريخ الأدب العربي. ص 158

2 - عنترة بن شداد: الديوان. ص 27

بطل كأن ثيابه في سرحه **يحذى نعال السبت ليس بتوأم[1]

وكان العربي يهدف من خلال هذه الفضيلة إلى تحقيق رغبة إنسانية هي التعاون والمساعدة والوقوف ضد الطبيعة الصعبة القاسية، وفي ذلك كرم وشجاعة، فضيافة إنسان غريب، ودعوته وإكرامه يعد مظهرا بارزا من الكرم، ليس الكرم المادي المتعلق ببذل المال فقط، بل إنه يتعلق أحيانا ببذل النفس، وهذه شجاعة نادرة يسعى العربي إلى الاتصاف بها فيجعلها طرفة من ضمن الأشياء التي يحرص عليها يقول[2]:

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى **وجدك لم أحفل متى قام عودي[3]

فمنهن سبقي الالعاذلات بشربة** كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وكزي إذا نادى المضاف محنبا ** كسيد الغضا نبهته يدالمتورد[4]

ومن مظاهر إقدام العربي وعدم تردده الوفاء بالوعد، سواء كان هذا الوعد مع شخص مات أم مازال حيا، وسواء كان هذا مع عدو أو صديق، إن الوعد هو احترام الكلمة، وعدم التراجع والتردد فيما أخذه العربي على نفسه، فقد كان العربي يتمسك بالكلمة إلى درجة التقديس، وإن الوفاء بالوعد كان شرطا أساسيا للشجاعة والقوة فالشجاع هو الصريح الذي لا يخشى أحدا[5].

إن الوفاء يرتبط عند العربي بالشجاعة، وقد كان العربي يحرص على الوفاء ومقابل ذلك كان يخشى أن يوصف بالغدر الذي يسبب له العزلة، وذلك أكره ما يكرهه العربي، يقول الدسوقي: «كان العربي يخشى أن يعرف بالغدر، وتشيع عنه هذه الخلة بين قومه وبين

---

1 – سرحة: شجرة طويلة جمعها سرح – السبت: جلود البقر إذا دبغت

2 – طرفة بن العبد: الديوان. ص 32

3 – قام عودي: أي مت فلم أصبح في حاجة إلى وجودهم.

4 – كري: عطفي من الكرعكس الفر، المضاف الملجأ – المحنب: الناتئ العظام – سيد الغضا: ذئب من أخبث الذئاب لأنه يختفي – نبهته: هيجته – المتورد: الطالب للورد.

5 – عمر الدسوقي: المرجع السابق. ص 115

سواهم من القبائل، لأن الغدر ونقض العهد، وإخلاف الوعد يجعله رجلاً لا يعتمد عليه في النائبات فيهمله قومه، ويتحاشاه طلاب الغوث والنجدة، وينفر منه أعداؤه وأصدقاؤه، وهيهات لرجل يتصف بهذه الصفة، وتكون حاله كما ذكرت أن ينبه اسمه، أو يكون من ذوي الرأي والجاه في قبيلته، وهو ما يحرص عليه كل ذي مروءة[1]».

وهكذا نجد أن للإنسان العربي رغبة ملحة في تقديم خدمات للآخرين، وتقديم المثل الأعلى في كل شيء، يريد أن يكون متقدما عن غيره دائما، وقد كان يقدم في سبيل ذلك كل ما يملك.

إن الوفاء بالوعد يبين تلك الأهمية التي يوليها الإنسان العربي للوسيلة باعتبارها جزء من الغاية، وإن الطريق إلى الهدف هو جزء من الهدف في حد ذاته.

1 – عمر الدسوقي: المرجع نفسه. ص 117